المستعرب الماركسي الفرنسي مكسيم رودنسون

صاحب كتاب "محمد" الشهير

تكمن القيمة الأساسية للمستعرب الفرنسي مكسيم رودنسون في أنه متعدد ميادين البحث. فهو مؤرخ وعالم اجتماع ومستشرق. وقد مارس عمله البحثي في هذه الميادين من موقع الفكر الماركسي المستقل، أي غير المنتمي عقائدياً إلى ماركس وغير المنتمي حزبياً إلى الحزب الشيوعي الفرنسي إلاَّ خلال فترة محددة في المرحلة الأولى من حياته السياسية والفكرية. إذ كان قد انتسب إلى هذا الحزب في عام ١٩٣٧، ثم انسحب منه في الستينات. ففي ذلك التاريخ شهد الحزب صراعات بين اتجاهات فكرية هنا واتجاهات فكرية هناك قادت الفيلسوف هنري لوفيفر إلى الخروج من الحزب، وقادت الحزب إلى إخراج روجيه غارودي من عضوية القيادة. وظلَّ رودنسون منتمياً على طريقته ووفق منهجه إلى بعض أفكار ماركس الأساسية محرراً نفسه من أي انتماء إلى أية أيديولوجيا، بما في ذلك ما كان يعتبر أيديولوجية ماركسية. إذ هو اعتبر أن الماركسية، كمحصلة لعلوم إنسانية عديدة، لا يمكن أن تكون إيديولوجيا ثابتة وإلاَّ تحولت إلى دين جديد، وهو ما كان يتناقض مع فكر ماركس الذي رفض تحويل الأفكار إلى عقيدة جامدة. لذلك ظلَّ رودنسون ماركسياً على طريقته، يبحث عن الحقيقة وسط تعرجات مسار حركة التاريخ، ووسط التحولات التي كان يشهدها العصر في مراحله المختلفة، ووسط الاكتشافات العلمية التي ما انفك العلماء في ميادين أبحاثهم كلها يقدمون الجديد منها على أنقاض القديم، أو بالاستناد إلى ذلك القديم وبالارتقاء في تجاوزه وفي التمايز عنه.

يقول رودنسون في تحديد علاقته بالماركسية في مقدمة كتابه "الإسلام سياسة وعقيدة": "... يجب عليّ أن أحدد باختصار من أي موقع أتكلم. فثمة كثير من سوء الفهم على هذا الصعيد. وغالباً ما يطلب من كتّاب اليوم هذا النوع من بيان الموقف. يعرف الكثيرون أني كنت ماركسياً معلناً خلال عشرين عاماً وأني ولدت في أسرة وعالم فكريين ماركسيين. وقد ساعدت الأحداث شيئاً فشيئاً وببطء شديد، وربما ببطء أكثر مما يجب، على انفصالي عن هذا المنظور الفكري. وقمت بعملية فرز.

وأستطيع أن آخذ عنوان كتاب بنديتو كروتشه الشهير "ما هو حي وما هو ميت في فلسفة هيغل". وهي وجهة النظر التي توصّلت إليها الآن مما يسمى "الماركسية".

أصدر رودنسون الكثير من الكتب في مجالات اهتمامه العلمية. لكن معظمها تمحور حول العالم العربي، تاريخه القديم وتراثه الحضاري والتحولات التي شهدتها مجتمعات بلدانه المختلفة عبر العصور، والقضايا الجديدة التي واجهتها شعوبه في تطورها الحديث بعد حصولها على الاستقلال. فهو، بهذا المعنى، مستشرق ومستعرب. ويكاد يكون عربياً في أفكاره ومشاعره واهتمامه بقضايا العرب كافة. ذلك أن ما كان يبتغيه من أبحاثه كمفكر ماركسي مستقل ومجدد هو معرفة الحقيقة حول هذا العالم العربي أولاً، وحول العالم الإسلامي بالتالي، انطلاقاً من معرفته بأن الانتماء الديني إلى الإسلام قد شمل معظم بلدان تلك المنطقة. وقد تميزت أبحاثه بالموضوعية. الأمر الذي جعله يختلف بمفهومه للاستشراق عن كثير من المستشرقين، وحتى عن كثيرين من العرب الذين تناولوا في أبحاثهم مسألة الاستشراق، بمن فيهم إدوار سعيد في كتابه المهم "الاستشراق". كان رودنسون يرى أن إدوار سعيد قد بالغ في الحديث عن المركز والأطراف، وعن دور الباحثين الغربيين في شؤون الشرق، إلى الحد الذي جعله يعتبر فيه كارل ماركس واحداً من أولئك المستشرقين الذين نظروا إلى بلدان الشرق عموماً، ومنها البلدان العربية وإلى دياناتهم وإلى علاقاتهم الاجتماعية، كبلدان متخلفة بالمعنى المطلق للتخلف، رغم أهمية حضاراتهم القديمة. الأمر الذي أعطى للاستعمار الذي حكم تلك البلدان دوراً إيجابياً، بمعنى من المعاني، إلى جانب دوره الاستعماري المرتبط بالهيمنة على بلدان هذه المنطقة. وفي الإشارة إلى دور الإستعمار في كلام إدوار سعيد ارتباطاً بالمستشرقين تلميح مقصود "ربما" لما ورد في كتابات ماركس وإنجلز في مطالع الخمسينات من القرن التاسع عشر(١٨٥٨) حول بلدان الشرق، الصين وإيران والهند وأفغانستان ومصر والجزائر التي وردت فيها إشارات إلى دور معين للاستعمار الأجنبي في محاولة تحديث تلك البلدان وإخراجها من تخلفها.

لقد رأى مكسيم رودنسون ، في قراءته لتاريخ العالم العربي الحديث علاقة قوية بتاريخه القديم. وهي علاقة لم تستطع شعوبه أن تتجاوزها، وهي تحاول الدخول في الحضارة المعاصرة. لذلك كانت أبحاثه شبيهة في مقاصدها بأبحاث أي مفكر عربي مهموم بقضايا بلاده، ساعياً إلى فهم مشاكلها، عاملاً على فتح الأبواب أمامها لكي تجتاز عقبة التخلف وتدخل في تحولات العصر الحديث. وهكذا نستطيع أن نلحظ بوضوح كم كانت هذه الهموم بارزة في كل كتابات رودنسون. وكان من أولى كتاباته المهمة، بل المهمة جداً، ثلاثة كتب هي "محمد" و"الإسلام والرأسمالية" و"الماركسية والعالم الإسلامي". وهي قد صدرت في الستينات من القرن الماضي. ثم تبعتها كتب أخرى فيما بعد لعلَّ أكثرها إثارة للاهتمام كتاب "جاذبية الإسلام" الذي صدر في أواخر السبعينات من القرن الماضي، و"الإسلام سياسة وعقيدة" الذي صدر في عام ١٩٩٣. وهي جميعها كتب تستحق أن تدرس بعمق من أجل كشف الهم الحقيقي عند رودنسون لمعرفة الحقيقة عن العالم العربي، وعن الإسلام باعتباره الديانة الأساسية للأكثرية الساحقة من شعوبه.

يعتبر كتاب رودنسون "محمد" في نظري أهم كتبه على الإطلاق. فهو قد حاول في هذا الكتاب أن يقدم قراءة موضوعية لسيرة شخصية تاريخية استثنائية. لم يتعامل معه كنبيّ. وهذا من حقه كمفكر وكعالم وكأجنبي غير مسلم. ولم يكن لانتمائه الديني كيهودي بالولادة أي تأثير على بحثه. ولأنه أحبَّ شخصية النبي محمد وأعجب بها فقد حاول أن يدخل في تفاصيل سيرته الشخصية والفكرية، ثم في سيرته كصاحب رسالة دينية وقومية عربية في الوقت عينه. وقاده اهتمامه بظاهرة النبي محمد إلى البحث، أو محاولة البحث، في معنى الوحي، ليس كعلاقة قدسية وألوهية بين النبي وبين ربه، بل كحالة بشرية. وكان يرمي من وراء دخوله في هذا البحث حول هذا الجانب بالذات من سيرة وشخصية النبي إلى تأكيد الجانب العبقري البشري في شخصية النبي من دون أن يتطاول على الدين ذاته. بل هو أبدى كامل الاحترام للإسلام وإلى الذين انتموا إليه. لكنه، في كتابه هذا وفي كتبه الأخرى عن الإسلام، آثر

الحديث بالتفصيل عن المسلمين من دون الدخول في موضوع الدين ذاته، ليرى كيف تجلّى الإسلام في علاقته بالمسلمين وفي علاقة المسلمين به. فذلك ، بالنسبة إليه، هو ميدان البحث الفكري والاجتماعي الأكثر واقعية والأكثر جدوى في مجال المعرفة التاريخية والسوسيولوجية. فهو رد غير مباشر على بعض الذين انتقدوه في كتابه عن النبي محمد. فأصدر كتابه "جاذبية الإسلام" الذي وضّح فيه فهمه للإسلام، ليس بالضرورة كدين بل كظاهرة تاريخية وكانتماء ديني واجتماعي وفكري وسياسي لشعوب منطقة بكاملها، ولعلاقة هذه الشعوب ودولها في مراحل مختلفة من تاريخها مع العالم الغربي. لكن كتابه "الإسلام سياسة وعقيدة" هو الأكثر وضوحاً ودقة علمية في تحديد قراءته للإسلام من موقعه كرجل لا يؤمن بالماورائيات التي تتعلق بالإيمان. يقول في كتابه "الإسلام سياسة وعقيدة": "منذ ستين عاماً وأنا أدرس العالم العربي وأحاول أن أفهمه. وقد عشت في وسطه سبع سنوات كاملة دون انقطاع (وولد فيه اثنان من أولادي). ودرست لغته بعناية وثقافته وتاريخه. ونشرت عدداً من المقالات والكتب تتناول قضاياه وألقيت محاضرات متعددة وأعطيت دروساً في جامعات عربية من الخليج إلى المحيط.. لا ريب أن دراساتي قابلة للنقد. وكثير من هذا النقد قام به فعلياً أشخاص من العالم العربي. ويبدو لي أن من المرجح، وأنا أعي جوانب الضعف الإنساني وجوانب ضعفي بوجه خاص، أن عدداً من تلك الإنتقادات مقبول جزئياً على الأقل".

إلاَّ أنَّ رودنسون لم يكتف في أبحاثه بهذا الميدان وحده. بل هو انتقل إلى الحديث بالملموس عن القضايا الشائكة التي واجهت العالم العربي في تطوره الحديث. وكان من أكثر القضايا التي شغلته قضية فلسطين بالتحديد. وكان من أولى وأهم كتاباته في هذا الموضوع بحثه الذي نشر في عام ١٩٥٣ في مجلة "نوفيل كريتيك" التي كان يصدرها الحزب الشيوعي الفرنسي. وكان عنوان المقال "الاشتراكية والصهيونية". ثم أتبع بحثه هذا ببحث آخر نشر في المجلة ذاتها في السبعينات من القرن الماضي بعنوان "من هم الفلسطينيون". وأهمية هذين البحثين أنهما، إذ يدخل فيهما رودنسون عميقاً في الجذور

التاريخية للقضية الفلسطينية ولقضية اليهود أيضاً، فإنهما يتجاوزان ذلك البحث إلى الراهن من الأحداث، وإلى التطور الذي اتخذه الصراع بين العرب واليهود حول فلسطين بعد قرار الأمم المتحدة بإقامة دولتين عربية ويهودية في فلسطين. واهتمام رودنسون بالتاريخ في هذه المسألة المعقدة يبدو ملفتاً للانتباه. فهو حين يذهب عميقاً في التاريخ القديم يكاد لا يولي أهمية للأخبار التي تناولتها الكتب بما في ذلك الكتاب المقدس، لوجود اليهود في فلسطين بعد خروجهم من مصر. ويؤكد، في السياق ذاته، أنه لا وجود لقومية يهودية بالمعنى الدقيق للكلمة. وما كان قد حصل عبر التاريخ هو، في نظره، تكوّن مزيج من القومية والدين ساهمت في صنعه الأحداث التي وقعت في مراحل مختلفة من التاريخ القديم والحديث، مضافة إليها مصالح كانت تتكوّن عند الحركة الصهيونية الجديدة المرتبطة بهرتزل وجماعته، التي يؤكد رودنسون علاقتها بالمصالح الاستعمارية في القرنين الماضيين التاسع عشر والعشرين. ويؤكد رودنسون، في هذا السياق ذاته، أن الهجرة اليهودية من أوروبا إلى فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها إنما كانت قسرية في الكثير منها. وهو يصر على أن يهود أوروبا كانوا أكثر ميلاً للبقاء حيث هم في بلدانهم التي يشكلون جزءاً منها ومن تاريخها، وترتبط مصالحهم بها من دون أي ريب ومن دون أي زيف. وإذ يأخذ رودنسون في الاعتبار التطورات التي حصلت عبر التاريخ الحديث فإنه لا يجد حلاً للقضية المستعصية إلاَّ بقيام دولة ثنائية القومية عربية ويهودية في فلسطين. وجاءت دعوته تلك قبل قيام دولة إسرائيل.

والجدير بالذكر أن والديْ رودنسون اليهوديين قد ماتا في أحد معسكرات

النازية خلال الحرب العالمية الثانية. وظلَّ يرفض على الدوام أن يجري التعامل معه كيهودي، ليس تنكراً لأصله، بل لأنه كان يعتبر نفسه مواطناً فرنسياً. ولم يكن يرى في أصوله اليهودية ما يستدعي منه الجهر بها أو الاحتماء بإعلان الانتماء إليها لأي سبب من الأسباب. فهو كان يقدم نفسه للعالم ويعرّف عن نفسه بأنه، في جذوره المعرفية، مفكر ماركسي علماني عقلاني.

يقول رودنسون في الكتاب الذي يحمل عنوان "الجندي المستعرب" الذي يتحدث فيه عن فترة وجوده في لبنان كضابط احتياط في الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الثانية: ".. في الواقع نسبي هو يهودي. لكنني لا أنتمي إلى الدين اليهودي، ولا إلى أي دين غيره. أنا دهري بدون ديانة. وهويتي هذه معروفة في فرنسا. ولا تطرح مشكلة. لكنها صعبة الفهم في الشرق الأوسط". ويقول في مكان آخر من الكتاب ذاته: "... كنت على الدوام ضد النزعة القومية اليهودية. وأعلنت ذلك ذات يوم أن يهوديتي هي عبارة عن تفصيل جنسي، الأمر الذي أغضب الصهاينة كثيراً...". ويقول في مكان آخر في الكتاب ذاته: "... لم أكن أعتقد يوماً بأن لليهود الحق بوطن في فلسطين. لذلك لم تكن تخطر ببالي قضية الهجرة إلى إسرائيل".

لعل أطرف وأغنى مراحل حياة رودنسون في مطلع شبابه هي المرحلة التي قضاها في لبنان عندما جاء مع الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الثانية كضابط احتياط. والأهم في هذه المرحلة هو ما ارتبط بالأحداث الخاصة به التي تبعت تحرره من ارتباطه بالجيش بعد هزيمة حكومة فيشي على يد القوات البريطانية وحكومة فرنسا الحرة بقيادة شارل ديغول في عام ١٩٤١. إذ تحوّل ضابط الاحتياط مكسيم رودنسون إلى معلم مدرسة. وكانت أولى تجاربه في التعليم في مدينة صيدا في جنوب لبنان.

تعرّفت إلى رودنسون في باريس في عام ١٩٨٢. واستمتعت بالحديث معه باللغتين العربية والفرنسية. وفي أواسط التسعينات أرسل لي الكتاب الذي أشرت إليه عن ذكرياته في لبنان الذي كان قد أصدره بالتعاون مع فيصل جلول وحمله لي جلول مع إهداء بتوقيع رودنسون وإلى جانبه توقيع جلول.

من بين المفارقات التي طبعت حياة رودنسون، كما يحب أن يقول هو، أنه كان يكسب معيشته من معرفته باللغة الأثيوبية. وقد استمر ذلك لمدة أربعين عاماً. وهو يقول في هذا الصدد: "... لقد اخترت ذلك بوعي كامل. كنت أعتبر أنني لو اخترت تدريس تاريخ الإسلام أو علم الاجتماع أو أنتروبولوجيا الشرق الأوسط فإن هذا الاختيار كان سيأتي بخمسين طالباً، وسيكون عليَّ بالتالي إدارة خمسين أطروحة.

في حين أن تدريسي الأثيوبية واللغة الحميرية (العربية الجنوبية القديمة) كان يأتي بخمسة أو ستة طلاب، ويعود عليَّ بالتالي إدارة خمس أو ست أطروحات. وهذا الأمر كان يوفر لي الوقت لمراجعة أبحاثي وكتاباتي...".